

الفصل السابع

بيشة^(١)

ينطلق الطريق فوق سهل واسع يكسوه نبات النصي وعليه شجيرات الطلح. تنحدر الأرض ناحية الجنوب وناحية الشرق وتنحدر المصببات من المرتفعات البعيدة ناحية الغرب إلى أربعة مجاري هي - خمده وخدان، وخندان، ووادي المياه، والراشدة، بهذا الترتيب من الشمال إلى الجنوب وذلك أثناء عبورنا لها.

تتقارب ثلاث المجاري الأولى تدريجياً وتتحد في النهاية مع الأخير، الذي ينطلق إلى وادي بيشة خلال فجوة ذات حجم معتبر. تقع السلسلة الجبلية المنخفضة الطويلة المكوّنة من الفرعة - على الجانب الشمالي - ومن تل قائم يسمى شمت العرضة، وهذا يتسمي لنظام التلال الجنوبية التي تملأ الأرض الواقعة بين طريقنا ما وراء الراشدة، وبين مجرى بيشة. كان وادي المياه هو الوادي الوحيد من بين خطوط التصريف هذه الذي واجهتنا فيه بعض المتاعب، فقد كان كثير الأشجار، مما اضطرنا إلى سلوك طريق آخر غير مباشر لتحاشي جذوع الأشجار. انتهى بنا منحدر خفيف من بازلت خشن، فيما يلي وادي المياه، إلى حد يفصله عن شعيب الحاوي والذي يبدو أنه الجزء الأكثر ارتفاعاً لشعيب رشيدة. وحيث إننا كنا قد وصلنا إلى هذا الموقع من جهة الجنوب، فهو هنا يستدير شرقاً تجاه الفجوة، يقع دربنا الآن فوق الحاوي وهو وادٍ يصل عرضه إلى الميل الواحد، وبه شجيرات تتجمع بين منحدرات منخفضة حتى سفحه، ويمتد إلى مسافة عشرة أميال إلى

(١) انظر أيضاً الفصل الثاني. (المؤلف). ولزيد من التفصيلات عن بلاد بيشة، انظر: ياقوت، معجم،

ج١، ص ٥٢٩، العواجي، بيشة، ص ٧٦ وما بعدها.

جانب سلسلة جبلية ترافقه وتميز بنقطتين بارزتين ومرتفع منخفض بينهما. كانت الساعة الخامسة مساءً عندما وصلنا إلى هذا الموقع وقررنا أن نعسكر فيه لقضاء الليلة، بعد رحلة قطعنا خلالها أثناء النهار (٤٦) ميلاً.

ارتفعت قمم الحاوي إلى علو (٢٠٠) قدم فوق مستوى الوادي وسيطرت على منظر عريض. كانت آخر التفافاتنا وإلى البعيد فوق الدروب إلى الرأس المضجر لحشم الكور الذي يقع ناحية شرق الشمال الشرقي - على بعد (٣٤) ميلاً. كانت قمة خضعة هي أقصى معلم أرض يمكن لنا رؤيته. وظهر، قريباً منا، ورك منيرة مرة أخرى، كسمة بارزة للسلسلة الجبلية التي تمتد أمامنا، كما يمكن رؤية جمعمور وهو جبل منخفض أسود يقف على الجانب الأيمن لوادي بيشتة من فوق واحة الجنيينة.

وقف جبل صدعه العالي، ناحية الجنوب الغربي، بقممه الثلاثة وكأنه حصن خارجي للسلسلة الجبلية الغربية الرئيسية (الحجاز، حقيقة)، التي ابتعدت عنا مدة طويلة وانفصلت بالصخور البركانية وجبال منطقة أخرى، غير أنها، وحتى الآن، تشاهد على البعد كأنها ساحل بعيد. كانت سلسلة جبال أبا الغربان ووادي المياه جزءاً من السلسلة الجبلية نفسها برغم أنها ليست مهيبة مقارنة بصدعة والتي لا بد وأن ارتفاعها كان لا يقل عن (١٥٠٠) قدم أو أكثر من فوق موقعنا.

لاحظنا في الصباح آثاراً جديدة للذئاب في أبي الدفوف بالقرب من معسكرنا، وقد سبق لي أن أشرت إلى ملاحظة الغزلان الثلاثة. لم نر وباستثناء الجمال التي كانت ترعى في سهل خشرم ومرافقيها، إلا أثراً ضعيفاً للحياة خلال هذه الرحلة. طارت حبارى من أمامنا في شعيب الحاوي وهي فزعة ونما إلى

أسماعنا صوت بلبل غير أننا لم نر الطائر نفسه وفي غير ذلك، فحتى دنيا الطير كانت شحيحة فهي قليل من يمام الصحراء، وقنابر والصدرد. ويبدو بوضوح أن البلاد التي مررنا فوقها في المراحل الأخيرة خلال مسيرة اليوم لم تنل نصيبها من الأمطار الأخيرة، والتي ربما لم تمتد جنوباً إلى أبعد من خشرم.

كشفت دليلي عن معرفته لجغرافية بلده، وبأنه متعلم، غير أنه الآن بدأ يفقد عمقه في هذه المنطقة «الأجنبية». ولحسن حظي فقد كنت ملماً بدرجة معقولة ببلاد بيشة وكانت خرائطي الخاصة لعام ١٩٣٢م مفيدة لي.

كنا لا نزال بالفعل في منطقة سبيع التي تمتد إلى شريط شعيب ذي خشا الذي يقع أمامنا، وهو رافد لوادي بيشة والذي ينضم إليه في أقصى جنوب سلسلة جبال ثملا. وينحدر حتى ذي خشا وينحدر من عند الجبال التي تقع إلى الجنوب من كتلة صدعة. يخرج مجرى آخر من جانبه الشمالي ليعترض ممرنا لعدة أميال إلى ما وراء تل الحوي ليتحد مع ذي خشا على الجانب القريب من ثملا. تسمى التلال الواقعة إلى الشمال من مخرج قمة ذهب، في مجملها، باسم كور البريحه- بريحة تصغير برحة-، وصدعة، وأم فرقين وكتل مرتفعة أخرى كلها كانت استمراراً جغرافياً لهذه السلسلة الجبلية، وعليه فهي ليست جزءاً مكماً لحاجز الحجاز الرئيس، الذي يقع ناحية الغرب. جرى طريقي لعام ١٩٣٢م بين الكتلتين الاثنتين فوق بلاد ذات تلال سفحية منخفضة.

لا يوجد ما يثير الاهتمام لهذا الوادي الرملي العظيم المطعم بالشجيرات والذي من خلاله يشق هذان الواديان طريقيهما، غير أننا رأينا زوجاً من الغزلان في الصباح الباكر وكذلك السحلية الورل، والتي برغم أنها كانت مجروحة، إلا أنها

تمكنت من الهرب إلى جحرها. وصلنا إلى منطقة قحطان فيما يلي ذي خشا، وهي أشهر قبائل العرب وأكبرها وربما تكون من جوكتان «سفر التكوين»^(١). مررنا في الطريق بهضبة جرانيتية أوحى لي شكلها بالانطباع لأسد مضطجع. تسلقنا هذه الهضبة، ما عدا كتلة على رأس الأسد لا يمكن تجاوزها ذلك لغرض المنظر العام واستكشاف كهوفه التي نحتتها الرياح، وقد تسبب دخولنا في إزعاج مجموعة من الخفافيش. كما لاحظت زوجاً من جبل الصخور (سيسي) وإلى جانب ذلك قمت بإدخال الدراسة إلى الحقيية. كما كانت هنالك يمامات صحراوية وصقر يحلق لعله يتفقد ما يحدث. وإذا اعتبرنا صغر حجمها، فإن هذه الصخرة تعج بالسكان.

دخلنا إلى شريط كثير الرمل، مباشرة بعد مواصلة الرحلة إلى ما يلي هذه الصخرة، تخترقه من الغرب إلى الشرق جداول عديدة لوادي تباله والذي به مجموعة قرى عالية بالقرب من سفحه في الجبال، وهو ينحدر إلى السهل ليتحد مع وادي بيشة فوق هضبة جمعمور. كانت هنالك أربع برك أكثرها مهابة كانت الثالثة^(٢) التي يعلمها شريط كثيف من شجيرات غضا جيدة النمو وبعض شجيرات الطرفاء القزمية. وصلنا بعد أميال قليلة من هذا الموقع، إلى الديلمي

(١) عمل بعض المستشرقين على ربط بعض مناطق ومدن الجزيرة ببعض الأسماء التي وردت في التوراة، وهذه إحدى المحاولات التي لا تقوم سوى على التشابه اللغوي بين الأسماء. ويرى بعض الدارسين أن اسم قحطان ذكر في التوراة باسم يقطان، والمقصود هو قحطان الموغل في القدم وليس قحطان القبيلة المعاصرة. (ابن جريس).

(٢) استناداً إلى معلومات أخرى وصلنتني أخيراً، فهذا المجرى ليس تباله ولكنه خليج، ينساب الأول إلى وادي بيشة عند الصبيحي فوق الديلمي ولذلك فهو لا يعترض طريقنا بالمرّة. واستناداً إلى المعلومات نفسها فإن ذي خشا يجب أن يكون نصيفه (Nasif)، في رأيي، وأين ذهب ذي خشا لا أدري أي الصور هي الصحيحة. (المؤلف).

وهي قرية ذات مزارع نخيل على الجانب الأيمن لوادي بيشة . كنا قد قطعنا (٣١) ميلاً ولا يزال الوقت مبكراً، غير أننا قررنا أن نمكث هنا حتى الغد ليكون لدينا حينها الوقت الكافي לנוاصل الرحلة إلى الروشن، عاصمة بيشة التي تقع فقط على بعد عشرة أميال .

ما يشير الاهتمام بمستوطنات بيشة هو اقتحام عناصر شهران لها منذ عهد قديم، وهم الذين يكون موطنهم الصحيح في الجبال إلى الغرب من مجرى بيشة وهي أراضٍ تابعة لقحطان . بدا العنصران وكأنهما متحابان، غير أنه من الغريب أن نجد أن القادمين ليسوا على الشاطئ الأيسر وهو الأقرب إلى بلادهم، ولكنهم على الجانب الآخر من النهر، حيث يحتلون قرى الدحو، وحريرة، والصبيحي، وقنيع وغيرها^(١) . كل قرى ضفة الوادي اليسرى يمتلكها أكلب (بني كلب) مجموعة من قحطان .

يخترق طريق السيارات قرية الديلمى وكان معظم موقع القرية على بعد (٢٠٠) ياردة إلى اليمين، بينما يقف إلى اليسار قصر منجزل بمبانيه الإضافية العادية . تسمى القرية الرئيسة العطف أو عطف الديلمى، محتفظة بالاسم الأصلي لملاك أرضها وهم القسم الديلمى لأكلب، يوجد في اتجاه أسفل الوادي، على الجانب نفسه، وتقريباً في استمرار مع الديلمى مزارع نخيل عطف الجبرة - قسم آخر من أكلب - كما توجد قرستان صغيرتان تسميان الدّواره والسقيفة . قضيت معظم فترة الظهر في هذه المنطقة، متجولاً باحثاً عن الطيور ومتحدثاً مع من

(١) هذه تضم الروشن ونمران والنغيلة والحرف - على جانب الوادي الأيسر - كلها في اتجاه الوادي عدا الرقيطاء فهي في اتجاه أعلى الوادي بالنسبة للدحو . (المؤلف)

أقابلهم من الناس أثناء أدائهم عملهم في مزارع النخيل أو في الحقول. أخبرني أحدهم أنه قبل حوالي (١٥) شهراً وقع سيل عظيم دخل الوادي وملاً المجرى من عند حافة حزام النخيل في الديلمي والجبرة إلى السلسلة الصخرية التي تكوّن جانب الوادي المقابل. ويقولون إن هذا الوادي ليس بالجارى، بمعنى أن مياه السيول تنساب بعيداً عنه ولا تتسرب إلى حوضه لتكوّن أنهاراً تحت أراضيّه، كما هو الحال في رنية والحرمة وتربة. وبناء على هذا القول، فإن قرى بيشة لا تعاني من حمى الواحة التي تعم الثلاثة الأخريات- وتوجد على أي حال- عدة برك معتبرة للمياه في هذا الجزء من المجرى نتيجة الأمطار الأخيرة، غير أنه لم تكن هنالك سيول كبيرة تذكر.

تقع قرية الدحو بأشجار نخيلها القليلة على أرضها المرتفعة إلى حد ما، في مقابل الجبرة عند منحنى سلسلة صخرية، وكان الجانبان في وقت من الأوقات- ليس بالزمن البعيد- يتحاربان من حين لآخر بأسلوب قبلي قديم. قال أحد محدثي من الجبرة مشيراً إلى الدعوة السلفية لعام ١٩١٠م وما يليها: «قبل أن نصبح كلنا مسلمين، كنا وهم دائماً في حروب، ولكن الآن- ونشكر لابن سعود- لقد أطل السلم بيننا لزمان طويل. الحمد لله! الحركة السلفية بالكاد وصلت إلى بيشة قبل العشرينيات^(١). أشار محدثي وهذا أدهشني، إلى شهران بأنهم قسم لقحطان وأكد وبفخر أن أكلب فرع من تغلب وأن شهران اشتقت من أصل قحطاني وأن هذا القسم الأخير تمتع باستقلالية كبيرة، وحقيقة فهو يتمتع بمرتبة قبلية كاملة، بينما لم تعد قبيلة تغلب حية، اللهم إلا في شجرة نسب سلالاتها

(١) دون شك أن انتشار الدعوة السلفية إلى بيشة وغيرها من أجزاء الجزيرة العربية نتج عن ذلك تصحيح الكثير من مفاهيم الناس الدينية فصاروا يوحدون الله (عز وجل) ويتركون كثيراً من الشراكيات والمعتقدات الخاطئة. (ابن جريس).

الذين يدينون بالولاء للقادة القحطانيين^(١). ذكر لي محدثي إلى أن أكلب يملكون قرى بيشة وهي: الجنيثة، وعُصْلان، والشقيقة، والنقيع، والجبرة، والديلمي كما استقروا كذلك في الثنية في المرتفعات العليا لتبالة.

يبدو أن أهل الديلمي فقراء، ومكوثنا في وسطهم مكرمة من عند الله لهم، وكان ذلك لأنهم تحصلوا على مبلغ جنيه استرليني واحد دفعناه مقابل تموينهم لنا بالبيض والدجاج والخضراوات، أو بالاستجداء، أو في حالة مساعدة الأطفال لي في أبحاث الطيور التي انتعشت بسببهم. كانت جائزتي الكبرى هي الحصول على بومه سكوبس والتي أطلق عليها المتحف البريطاني فيما بعد اسم (Ots Scops Pamelae). أحضر لي أحد المواطنين أربعة منها وأحضر لي كذلك ثلاثة من بوم الحظائر، وجرذاً واحداً وعدداً من الجرابيع. وقد كانت آكلات النحل في وفرة بين أشجار النخيل، وهي تعشش هنا بلا شك، وذلك لأنه قد أحضر لي فرخ صغير لم يثبت نصف ريشه بعد إلى جانب بيض لبعض العصافير في مرحلة مماثلة من النمو. كانت طيور الهدهد والبلبل أيضاً شائعة وكذلك يمام النخيل طويل الذيل. أضفت إلى مجموعتي حيوان الورل وكان عليّ أن أستغني عن خدمات صبيبة لم أكافئهم على ما أحضروه لي من الطيور التي اصطادوها وذلك لأنهم مثلوا بها بتحطيم أجنحتها أو بنزع ريش الذيل^(٢).

(١) لقد خلط فيلسفي وبعض رواته في أنساب قحطان وشهران وتغلب، والمعروف أن قبيلة شهران العريضة تُنسب أساساً في قبائل خثعم، وبلاد شهران وخثعم المعروفة اليوم تأتي مواطنها إلى الشمال من بلاد قحطان التي من حواضرها الرئيسة: سراة عبيدة، وظهران الجنوب، وأحد رفيده وغيرها من المراكز. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن أسماء بعض الطيور والحيوانات المتواجدة في منطقة بيشة، انظر: العواجي، بيشة، ص ٤٥ - ٥٠. (ابن جريس).

تجمع حشد كبير من الرجال والنساء والأطفال في الحديقة الجميلة التي نصبنا فيها معسكرنا لكي يقوموا بوداعنا في صباح اليوم التالي وقد جلبوا لنا اللبن والبيض والخضراوات على أمل أن نشترى منهم عند آخر لحظة. يبدو لي أن الديلمي، بناء على جهاز قياس الارتفاع غير السائل أنها عند الارتفاع نفسه فوق سطح البحر الذي تقع عليه رنية، والتي تبعد عنها حوالي (١٠٠) ميل. عبرنا الوادي على طريق مائل لنصل إلى نهاية السلسلة الصخرية المقابلة، ولم تواجهنا صعوبة في العبور، لم تكن هنالك مياه في مجرى السيل الأصلي عند هذا الموقع، حيث كان عرض الوادي (١٠٠) ياردة، وكان القاع الطيني متيناً. اكتسى معظم بطن المجرى بأشجار طرفاء قصيرة ونبات الشار ذي السائل اللبني. وصلنا إلى الجانب الآخر فوق الحريرة حيث رافق طريق السيارات درب الجمال القديم عن قرب على الجانب الأيسر للروشن ذلك الدرب الذي كنت قد سلكته عام ١٩٣٢م. لم يمض وقت طويل حتى وصلنا إلى باب قصر الحاكم وتمت إقامة معسكرنا في مزرعة النخيل الجذابة، التي تقع خلفه.

يُعرف مقر إقامة الحاكم رسمياً باسم قلعة بيشة، برغم أنه يشار إليه عادة وباختصار بالقصر. يقع القصر بجوار حلة الروشن ولكنه يقف في منأى عنها في أرض واسعة مكشوفة. كان الحاكم آنذاك (١٩٣٢م) هو عبدالله بن معمر، رجل جذاب ولكنه غير مسرف في الكفاءة وهو سليل أسرة آل معمر ببلدة العيينة في وادي حنيفة. تولى بعده، بعد عدة سنوات محمد بن جبرين^(١) من الرياض ثم تنازل، بعد فترة قصيرة لم تكن ناجحة جداً، إلى محمد بن عبيكان أيضاً من أبناء

(١) الصواب أنه سليمان بن عبدالله بن جبرين من القويعة وليس من الرياض. (ابن جريس).

أحد تابعي الأمير فيصل المقرين . وحدث هذا التغيير في يناير ١٩٣٦م ،
 فقد كان يشغل وظيفته مدة خمسة شهور فقط . كان يعرفني من قديم
 ماءل في محبة عن زوجتي مستخدماً اسمها المسيحي وكان قد قابلها أثناء زيارتنا
 لمعسكر الأمير فيصل في عشيرة في طريقنا من الرياض في ديسمبر الماضي .

استغل الملك هذا التغيير للأمير ليجري عملية غريبة للموظفين القياديين في
 بيشة ليفسح المجال لبداية جديدة . لهذا فقد صاحب ابن عبيكان حين وصوله تعيين
 قاضي جديد ومدير جديد للزكاة . كان الأخير هو سليمان بن إبراهيم الرواف من
 أسرة ذات علاقات وأملاك في العراق والذي كنت قد قابلته في عام ١٩١٨م في
 القصيباء أثناء حملة ابن سعود الأولى ضد حائل . كان القاضي هو محمد بن
 الشيخ ، اسم العائلة هذا يدل على أنه سليل مؤسس الدعوة السلفية ، الشيخ
 محمد بن عبدالوهاب . الذي لا يشبهه هذا الحفيد إلا في القليل . كان ضعيفاً
 ومصاباً بالأنيميا (بفقر الدم) ، ويتحدث بصوت صديري ولكنه برغم هذا كان
 ذكياً ، وكان شخصاً لطيفاً للتحادث معه . ولا يبدو بالتأكيد أنه مرتاح لمركزه المنفي
 في هذه المحافظة النائية ، التي لم تكن حتى مرتبطة بلاسلكي في ذلك الوقت ، مع
 بقية العالم .

كان ابن عبيكان أنيقاً في تخير ملابسه وكان جميلاً بشكل مدهش مع صورة
 جاذبية إغريقية ولحية سوداء معتنى بها تغطي جانبي الوجه والحنك . كان كرمه
 نموذجاً للأحسن في شبه الجزيرة العربية ، وكان يبذل أقصى إمكانياته لجعل إقامتنا
 مريحة إلى أبعد حد . كان مصرّاً علينا أن نشغل منزلاً لأجل أن ننال راحة أكثر ،
 ولكنه رضخ لتوسلاتي وسمح لنا بأن نصب معسكرنا في مزرعة النخيل ، والتي
 وضعها تحت تصرفنا ، كانت مزرعة قريبة من القصر ورائعة .

عدت إلى المزرعة للراحة بعد الغداء الممتاز الذي قدم لنا عند
المقابلة الأولى مع الأمير. لقد سمح لي بالمناسبة أن استمتع بأخذ حمام في
حمامه الخاصة الملاصقة لغرفة جلوسه الخاصة، المؤثثة في رفاهية، والمفرر
بالسجاجيد والمزينة بتصميمات هندسية بأحبار وألوان مختلفة على كل الجدران.
هذا الضرب من الزخرفة يميز للبلاد حول ألبها وهو عادة من اختصاص النسوة في
تلك الأجزاء، لا بد أن يكون بعضهن فنانات أصيالات. تم تزيين هذه الغرفة
بواسطة فتاة من الرقيق جلبها الأمير عبدالله بن معمر من ألبها عندما كان حاكماً
هناك، وبلا شك كان هو ومن جاؤوا بعده يملأون أوقات فراغهم في هذه الغرفة
في دعابات لطيفة. سنرى الكثير من هذه الزخرفة أثناء تحركنا تجاه الجنوب^(١).

نمت في العراء تحت ظل شجرة نخيل كبيرة منتشرة وعليها ثمر عظيم أخضر
غير مستوٍ وهو يتساقط من حولي منها ومما جاورها من أشجار وله صوت مكتوم،
ثقيل حينما يرتطم بالأرض. لفت هذا نظري لغرابته لأن تجربتي تؤكد لي أن ثمار
البلح لا تتساقط ولو كان ناضجاً. ولم أجد سبباً يفسر لماذا يتساقط الآن وبهذه
الطريقة وهو لم يزل أخضر؟ عرضت هذا الأمر على خبير في وقت لاحق في
اليوم نفسه، فأخبرني أن بعض أنواع الحشرات الضارة كانت هي المسؤولة عن هذا
التساقط، وأن هذه الحشرة أصبحت وباءً في ذلك الموسم في بيشة، حيث لا يتوقع
أن ينضج البلح قبل شهر يوليو. بيعت في هذه الأثناء كميات كبيرة من هذا البلح

(١) إن أهل عسير وبخاصة النساء عرفن في القرون الماضية بفن زخرفة البيوت من الداخل وتزيينها بالوان
جميلة مستمدة من نباتات وأشجار محلية، ومن يزور في يومنا الحاضر بعض القصور أو المنازل القديمة
الموجودة في حواضر منطقة عسير، مثل: ألبها، وخميس مشيط، والنماص، وبيشة، وسراة عبيدة،
وغيرها فإنه سوف يلاحظ أشكال وألوان مختلفة رُسمت على جدران البيوت والقصور من الداخل، وفي
الغالب كان نساء المنطقة هن اللاتي يقمن بعملها، بخلاف منازل الأمراء وأعيان البلاد فالجواري ربما كانوا
من يقمن بهذه الأعمال. (ابن جريس).

جبل أوانه في الأسواق وتم شراؤها بشغف. التهمها رفاقي بشره شديد
وجدتها بلا نكهة.

كانت الثمار من الصنف الذي يسمى صفري. تناولنا بالمناسبة أول إنتاج
عنب هذا الموسم وفي هذا اليوم بالذات في بيشة، ولكنها أيضاً كانت غير ناضجة
وحامضة بعض الشيء. كما أخبرت بأن الخوخ لا ينجح في هذه المنطقة برغم
المحاولات التي تمت لتشجيع زراعته. يُزرع الليمون على نطاق محدود، غير أن
تربة وادي بيشة بصفة عامة لا تبدو مناسبة لزراعة أشجار الفاكهة، غير التمر.
تنمو الطماطم والبامية -أصابع السيدة- بسهولة، ويوجد الزعتر في معظم
الحدائق. كان المحصول المفضل علفاً للجمال هو البرسيم، إلى جانب القمح
والشعير، والدخن (الذرة)^(١).

يظهر الفقر والكآبة هنا على المزارعين كما لاحظت في الديلمي. كان عمق
الماء هناك بالمناسبة في الآبار حوالي ثماني قامات، وكان الجزء الأعلى من
الصهريج منغمساً عبر كثافة معتبرة من الطين حتى أنه يصل إلى طبقة صخرية
رفيعة يوجد الماء في أسفلها عند عمق قامة واحدة أو قامتين في الطبقة الحصوية
ويوجد الماء هنا في الروشن على بعد عشرة أميال أعلى الوادي، عند عمق عشرة
قامات أو إحدى عشرة قامة، علماً بأن البئر الموجودة في مزرعتنا كانت شاذة
بوجود الماء فيها عند عمق ست قامات فقط.

كنا محظوظين في توقيتنا لزيارة بيشة في منتصف الأسبوع. ذلك لأن سوق
الروشن الأسبوعي. يقع أيام الأربعاء (سوق الربوع)، بينما يكون السوق في نمران

(١) توجد مثل هذه المزرعات في معظم جنوبي البلاد السعودية، وتعتمد في ربيها على الأمطار، وأحياناً
على مياه العيون والآبار الجوفية. (ابن جريس).

المجاورة يوم الخميس (سوق الخميس). يُعقد سوق الروشن في فترة بعد الظهر، بينما يستمر سوق نمران طيلة اليوم. وعليه، فقد عدت للقص فترة راحة، لأجد الأمير جالساً في أبهة ومعه موظفوه الرئيسيون، والعديد أعيان البلدة، على طاولة طويلة من الطين خارج القصر في ظل جداره الأمامي. كما هي عادة النجديين.

كانت مناشط السوق الأسبوعي على أشدها في الساحة الواسعة، كما كان نشاط مجلس الأمير، ومن حين لآخر، يتجه فرد أو مجموعة أفراد من داخل الحشد الذي كان كبيراً، نحو الأمير ليعرض شكواه أو يعرض بعض الالتماسات. كانت كل حالة تعالج ويقطع فيها في التو واللحظة وعلى مرأى ومسمع العالم، وفقط في الحالات التي لا يمكن علاجها بهذه الطريقة فإن الأمير، يوصي أو يوجه المدعي بأن يرفع الأمر إلى القاضي^(١). يخصص يوم سوق الروشن تقليدياً لتنظيم المواشي، برغم أنني رأيت مجموعة من النسوة يجلسن القرفصاء على الأرض وهن يعرضن صحافاً للبلح الأخضر موضوعة أمامهن، لعله ضرب من الوجبات الخفيفة لمن يحتاج إليها. أما الجمال، والأغنام، والماعز، وبعض الأبقار فكل هذه قد اختلقت مع البائعين والمشتريين، بينما يتحرك وكلاء البائعين يعلنون آخر مزايده أو مناقصة تم عرضها حول هذا الحيوان، أو ذاك.

(١) الأسواق الأسبوعية كانت منتشرة في جميع أنحاء الجزير العربية، بل هي من الأساسيات في اقتصاديات الناس وتداولهم السلع التجارية. كما كانت هذه الأسواق ملتقى اجتماعياً وفكرياً وثقافياً تمارس فيها عدد من النشاطات الحضارية المختلفة مثل: تبادل الأخبار بين الناس، وإعلان الأخبار الهامة التي تخص أمور الناس، كإعلان الحرب أو إيقافها، أو إقامة الحدود الشرعية، أو الدعوة إلى إقامة صلاة الاستسقاء وغيرها من الأمور التي تولتها مؤخراً وسائل الإعلام المختلفة وبعض المؤسسات الفكرية والثقافية والاجتماعية المتنوعة في أهدافها ووسائلها. (ابن جريس).

لحديث في حلقة الأمير بغموض إلى موضع البحث عن الذهب في جاوررة لبيشة^(١)، وأخبرني الأمير أن الرجل التابع لشركة المناجم الذي إلى بيشة عن طريق رنية، لم يكن إنجليزياً بالمرّة، ولكنه كان عربياً يعمل راً- مترجماً تصحبه مجموعة صغيرة من الهنود. لقد ذهبوا إلى موقع الطبقة ارزة فوق سطح الأرض الكوارتزية والتي تسمى العبلا (Abla) بالقرب من يفة، وهي رحلة تستغرق يومين بالجمال، ناحية الغرب من بيشة. لم تتمكن بارة من إكمال الرحلة، برغم أنها تحركت من بيشة، وعادت الفرقة على ظهر مال. تحرك رجل إنجليزي في هذا الأثناء، واسمه السيد لاركن (Larkin) تابع ركة ومعه فرقته راكبين الجمال، من الطائف وليس من تربة لدراسة البلاد راقعة في الطريق إلى أبها. لم تصل إلى بيشة أي تقارير عن هذه الحملة بعد.

كان أكثر الحضور المستمعين اهتماماً بهذه القصة هو سعيد بن كدسة، تاجر بيشة الرئيس، الذي دعاني فيما بعد لزيارته في منزله. سرنا راجلين عبر الروشن، لكي نصل إلى منزله، وكان الشارع عريضاً وغير مميز، مارين بمنزل كبير، كان قد امتلكه حديثاً وسكنه، ولكنه باعه مقابل (٩٠٠٠) ريال بعد أن شيد لنفسه بيتاً كأنه القصر في عام ١٩٣٤م، عند حافة مزرعة نخيل ممتازة تحتوي على حوالي (٤٥٠) نخلة، اشتراها كلها بمبلغ (٥٠٠٠) ريال. يقع هذا المنزل إلى مسافة فيما يلي النهاية الغربية للبلدة. كما أنشأ فيه حديقة على مستوى طموحي، لأشجار

(١) ولزيد من الإيضاح عن المعادن، وبخاصة الذهب، في جنوبي الجزيرة العربية، انظر: الحسن بن أحمد الهمداني. كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء. (الرياض، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م) ص ٨٦ وما بعدها، وانظر أيضاً: تعليقات حمد الجاسر الجيدة التي أوردها على صفحات هذا الكتاب، بالإضافة إلى البحث الذي ألحق بنهاية الكتاب بعنوان: - (التعدين والمعادن في جزيرة العرب) ص ٣١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

الفاكهة وللخضراوات، داخل سور محيط بها ليزيد من أسباب الراحة هذا المشروع كان لا يزال في مراحلہ الأولى. كان المنزل يتكون من طابق مقسماً إلى قسمين: أحدهما، بالطبع، كان للنساء. يوجد فناء كبير، غير أمام غرفة الاستقبال الرئيسة لحفظ أفضل إبله، وبعض الأغنام، وفرس أبي اسطبله، وكان على حق في أن يفخر به. كانت الغرف الأخرى، من حول الفناء لتخزين بضاعته، ذلك لأنه كان تاجراً على مستوى كبير. كانت غرفة الاستراحة كبيرة وبسيطة، كما أنه أخذني إلى الطابق الأعلى حيث غرفة ذات رسوم خذات حصائر غنية، وبها أعمدة من خشب الأثل، مزخرفة لدعم السقف المدعوم من شرائح بسيطة بلا طلاء، ومن الخشب نفسه. كانت الأعمدة منقوشة بتصاميم بسيطة ومطلية بالأسود وكانت النوافذ واسعة مصنوعة من الخشب - لم يستخد الزجاج في بيشة بعد-، وكان الباب مطلياً بالأسود أيضاً.

لقد كان المنزل في تضاد مدهش مع جدران منازل جيرانه العارية، البسيطة، عديمة النوافذ، والجافة ويعلن منزله هذا عن أن مالكة رجل ذو أفكار حضارية. تعيش زوجاته الأربع في الجزء الآخر من المنزل، والذي لم أره بالطبع، كان لكل واحدة منهن شقتها الخاصة. ولكنهن فيما بينهن، أنجبن ابناً ذكراً واحداً، كان يراجع المدرسة المحلية في هذا الوقت^(١).

هاجر سعيد إلى بيشة عام ١٩٢٠م من بلاد غامد في مرتفعات الحجاز حيث يعيش والده في العاصمة الظهر، حيث كان الحاكم في هذا الوقت هو تركي بن

(١) في عام (١٣٥٤ - ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٤ - ١٩٥٣م) بدأت أولى المدارس النظامية في بيشة، وأبها، وجازان. للمزيد انظر: غيثان بن جريس. تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤هـ - ١٣٨٦هـ) (١٩٣٤م - ١٩٦٦م). (جده: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) الجزء الأول، ص ٥٢ وما بعدها. (ابن جريس).

سدير، كانت خدمات البريد تصل كل أسبوعين من الطائف، وكانت إلى بيشة تصل عادة عن ذلك الطريق، إلا إذا حدث أن كانت هنالك متجهة إلى الجنوب. لا توجد سيارات في بيشة ولا يوجد جهاز راديو

لقد نجح سعيد بن كدسة اقتصادياً، على أي حال، واستمتع بضرية حظ بئاً. في السابق كانت بلدتي وادي الدواسر والسليل تؤديان دوراً مهماً كأسواق نلية لاستيراد البن من اليمن، وتوزيعه في مدن ومناطق نجد. ولكن حدث راً ولأسباب أميرية وجيهة، تم اختيار بيشة لتكون المركز الوحيد لاستيراد البن وزيعه لكل من نجد والحجاز. وقد تم منع مرور قوافل البن إلى وادي الدواسر. سبب هذا في إحضار طحين كثير لطاحونة سعيد ولطواحين مواطنين قليلين آخرين نريين منه من منطقة غامد وهم الذين يكوّنون النخبة التجارية لبيشة^(١). لقد كان سعيد بحق رجلاً لطيفاً ذا أفكار متطورة ويبدو أنه محبوب بصفة عامة في المنطقة. فهو إلى جانب تجارته العادية، وكإضافة جانبية، مضارب في سوق العبيد، وكان نوع ما يعرضه من سلع معروف في كل مدن الجزيرة العربية.

كان معظم سكان الروشن، باستبعاد عنصر غامد، من بني سلول التابعين لشهران، بينما كان سكان نمران من معاوية، وقد أعطت اسمها أيضاً للسهل الكبير الممتد شرقاً من الروشن وسلسلة ملححة على بعد خمسة أو ستة أميال. كان سوق الخميس في نمران، الذي زرته مع سعيد، الذي كان راكباً فرسه، بينما كنت أقود

(١) كثير من رجالات غامد اشتهروا بممارسة التجارة حتى صاروا من كبار التجار في بيشة: - أمثال سعد بن كدسة وبعض وبعض إخوانه، وكذلك رجال آخرين في الطائف، وأبها، وجدة وغيرها من مدن المملكة. (ابن جريس).

سيارتي، أكثر إثارة للاهتمام مقارنة بأحداث ظهر اليوم السابق في الر
العنصر الرسمي غائباً تماماً، وكان الحشد ليس فقط كبيراً، ولكنه كان أد
لقد عقد السوق في مساحة كبيرة مربعة، مبنية خارج البلدة، وتحيط به
صفوف من متاجر مبنية من اللبن لا يزيد ارتفاعها عن ستة أقدام. كان ل
مسجده الخاص، بالكاد أكثر ارتفاعاً من مستوى المتاجر، ويبدو- بالتأكيد-
صف من المتاجر، أكثر منه مكاناً للعبادة، لأنه ليس له مئذنة. توجد بين الم
وخلفية المتاجر، على الجانب الشمالي للسوق المسور، ساحة مكشوفة أخ
مخصصة لسوق النساء وقد رأيت فيها عدداً كبيراً من النسوة يعملن بائ
متجولات ويعرضن للبيع أشياء مثل الحبال، والحصائر، والفلفل، والبهارات
والتمر. وتوجد على الجانب الشرقي للسوق ساحة أخرى لسوق المواشي، حي
تباع الجمال عن طريق الدلالة، ذلك لأن الأسعار تتفاوت من (٢٠) إلى (٨٠)
ريالاً في هذا الوقت، فإن (٢٠) إلى (٢٢) ريال تعادل جنيه استرليني ذهبي
واحد. وتباع الأغنام بسعر ريالين أو ثلاثة ريالات وقد رأيت ثوراً جميلاً ذا سن
يباع مقابل (١٤) ريالاً فقط. وقد استأجر دليلي، القادم من رنية، جملاً ليعود به
إلى هناك بقيمة (٣,٥) ريالات ونصف الريال فقط، وقد استأجر الرجال الذين
صحبوني من الخرمة، جملاً بمبلغ ثلاثة ريالات في رنية، لأجل رحلة العودة.
يبدو أن الأسعار كانت منخفضة بصورة مذهشة في كل شيء^(١).

لفت نظري أكثر من غيره، ذلك المنظر المعروض على شكل رسوم متحركة
في السوق، حيث تجتمع عناصر متعددة لسكان البلدة، ورجال من جبال الحجاز،

(١) لقد ازدادت الأسعار، بالطبع، منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية. (المؤلف).

وأناس فقراء، كأن الواحد منهم - حقيقة، هو أفقر الفقراء. يبدو أن سمعتي في المناشط الخاصة بالتاريخ الطبيعي قد وصلت إلى الحشد، حيث إنني حينما كنت أقوم بالتقاط الصور الفوتوغرافية للمنظر أعلاه، كنت أجد نفسي محاطاً برجال متحمسين يسألونني كم سأدفع لهم مقابل ثعبان أو شيهم أو ذئب أو وعل. أما النسوة فإنهن كنَّ يحمنَّ على حافات الحشد، يظهر أنهن كنَّ متشوقات لرؤية أجنبي بينهن، وكان بعضهن سيدات شابات وكانت أعينهن لامعة، ولكن معظمهن كن متقدمات في السن، ومهزولات ومتعبات مع كفاح الحياة. يلبس معظمهن زي السمق، ولكن عدداً كبيراً منهن كنَّ يرتدين الأحمر، والقليل منهن قد ارتدين ما لونه أصفر، غير عادي، وجذاب. كلهن كن يرتدين الحجاب الإسلامي الأسود الذي يغطي الرأس والوجه ويمتد إلى الصدر. توجد في سوق الرجال بضائع تباع بالقطعة وبكميات وافرة، إلى جانب أشياء مصنوعة محلياً من الجلد، بالإضافة إلى ما يعرضه البقال وما شابه ذلك. كان منظرأ مدهشاً غير أنه تذوق مبدئي لما يمكن أن نراه، من النوع نفسه، ناحية الجنوب.

قمت بزيارة سليمان الرواف في أحد الأيام، بعد تناولي الإفطار مع الأمير، وكان قد حدثني عن نظام الضرائب الذي كان يسيطر عليه. إلى جانب الرسوم التي تدفع على البن المستورد وغيره من البضائع التي ترد من اليمن، ذكر لي أن الضرائب المحلية تنحصر في الزكاة التقليدية، تجبى عادة في النوع برغم أنه يمكن قبول النقد المالي في بعض الأحوال. يؤخذ العشر على التمر ومحاصيل الحبوب الشائعة - (قمح، وشعير، ودخن). يُقدر المحصول في كل حالة بواسطة الخبراء الذين يرتبون مع رئيس القبيلة أو القرية كيفية تسليم نصيب الحكومة في الروشن، مقابل تعويض مالي. يباع هذا الجزء من المحصول لأعلى عرض، إلا إذا أمرت

الحكومة المركزية بجمع الحبوب لأجل حملة عسكرية أو ما شابه ذلك. تقبض ضريبة الجمال نقداً، بينما في حالة الضأن والماعز فإنه يتم أخذ ثلاثة حيوانات لكل (١٢٩)- فقط واحد على أربعين من حجم القطيع^(١).

اغتنمت فترة إقامتي هنا لأقوم بجوله في الواحة وما يجاورها، ملء فراغات في استكشافاتي السابقة. ينبع الوادي، بالفعل، في السهل من السفوح الجبلية على بعد ميلين ونصف الميل جنوب غرب قرية الروشن ويقف فوق هذه، وعلى حافة المجرى قصر الصفار المنعزل ومجموعة النخيل الصغيرة صفن. من الروشن توصلت إلى اتفاق للحصول على خدمات دليل جديد، يسمى فايز ومن فخذ بني معاوية إذ أن له معرفة كبيرة بتضاريس البلاد المحلية ولكنه كان قليل الإدراك بالطيور.

كانت هنالك مجموعات من نخيل أخرى إلى جانب مجموعة الروشن، نمران، والنغيلة. كانت المزهرة منها، هي: مقطر الباقرة، إلى جانب تل عارٍ منخفض يسمى هضبية الذي يقال إنه كان موقعاً لمستوطنة قديمة (بني هلال). كانت جبلة مزرعة نخيل أخرى صغيرة، بينما يقع تقريباً في مقابل نمران، الشريط الطويل للنخيل الذي يتبع قرיתי أبي شوك والحرف الصغيرتين.

توجد بعيداً عن الساحل، ناحية شرق الجنوب الشرقي، مجموعة تلال حادة تسمى الصوابر (مفرد الصايرة)، كان أحدها من كوارتر أبيض، أو تقريباً وردياً، والذي اعتقدت أنه منجم الذهب المحتمل! كان شاخصاً إلى ارتفاع (٤٠٠) قدم فوق مستوى السهل، في شكل هرمي كامل، ويبعد إلى مسافة سبعة أميال من

(١) وهذا نص فقهي في زكاة البهائم. (ابن جريس).

مخرج الوادي ومن التلال السفحية. كان الصعود فيه صعباً ولكنني وصلت إلى القمة قبل دليلي الشاب الذي اعترف بتفوقني عليه وبإعجاب. كان أحد الصقور الداكنة اللون يحلق فوق القمة حين وصولنا إليها ولكنه سرعان ما هرب عنا، والشيء الوحيد الذي عثرت عليه أثناء بحثي عن عش محتمل بين الصخور البيضاء كان ريشة واحدة.

كان المنظر عند القمة واسعاً جداً، ونظرت بعيداً جهة الجنوب، فوق الطريق الذي سنسلكه غداً، في بلاد لم يرها أوروبي من قبل أبداً^(١). كان أبرز ما ظهر في هذا المنظر هو سلسلة جبال أبط، ذات القمة المسماة طويل العبد البارزة، إلى جانب سلسلة جبال الصواير التي كانت مطوقة للمنظر من ناحية الجنوب. ويقف قريباً منا، على بعد ثلاثة أو أربعة أميال قوس تلال ملحّة الذي يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي ويرافقه خشيم الذيب إلى جانب كتلته الصخرية على مسافة نحو البعيد، وتقع إلى يساره.

لا يزال من الممكن رؤية صدعه بعيداً ناحية الشمال الغربي، بينما اكملت تلال مطوقة السفحية ومعها كتل مرتفعة أخرى من وقت لآخر، الحاجز من ناحية الغرب من الصايرة.

تقع بيشة في الوسط وتقع مزارع نخيلها خلف سهل عشبي شجيري هو حمى أو محميات رعي تابعة للحكومة. تناولت العشاء مع سليمان الرواف في ليأتي الأخيرة، ورافقتني إلى معسكري للاستماع للأخبار والاستمتاع بالموسيقى.

(١) لم يكن فيليبي أول أوروبي يشاهد هذه البلاد، وإنما سبقه بعض الأوربيين أمثال (تاميزيه) في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). (ابن جريس).

استمعت إلى نتائج سباق الدربي ليلة الأمس! نمت تلك الليلة على أنغام موسيقى سحب مياه الآبار والتي تعمل بواسطة جملين أو أحياناً ثلاثة جمال^(١)، كان الجميع في صباح اليوم التالي، على استعداد للمرحلة التالية من الرحلة.

تناولت ومعي إبراهيم بن فرج طعام الفطور مع الأمير الذي أخبرني أنه قد بدأ حياته تاجراً للؤلؤ على مستوى بسيط ودون نجاح كبير، بسبب التغيرات الكبيرة التي صاحبت الحرب العظمى^(٢) التي أثرت كثيراً على سوق اللؤلؤ العالمي ودفعته نحو الأسوأ. جاء سليمان الرواف مسرعاً وفي آخر لحظة للوداع، جالباً معه ثلاث من الماعز الحلوب كهدية وداع. كانت فكرة كريمة، ولكن، ربما من حظ الماعز، أنه كان لا يوجد لهما موقع في سيارتنا.

وهكذا انطلقنا نحو الجنوب. في اليوم التاسع والعشرين من مايو، وبذلك نكون قد التزمنا تماماً بالأحد عشر يوماً التي وضعتها في برامجي الخاصة بهذا الموقع. وصلنا إلى تل يسمى الشهيلا يقع على بعد مسافة ستة أميال من بداية انطلاقنا، وتوقفنا عنده، ويتكون من صخور بللورية مزرقّة اللون الأبيض مع شقوق نحيلة كالخنادق من البازلت. يمكن رؤية قصر الأمير، أمامنا ناحية الشمال، كما تضمنت التلال المكوّنة في ترتيبها شبه الدائرة، والتي تقع أمامنا كتلة هضب المنابه التي تقع إلى يسارنا، بينما يقع إبط إلى الأمام من موقعنا وتقع مطوّقة إلى اليمين. توجد في هذا الاتجاه الأخير تلال منخفضة يمتد فيها مجرى بيشة الذي لا نراه غير أنه ليس بالبعيد.

(١) وهو ما يعرف بالسواني لرفع المياه من الآبار وري المزارع. (ابن جريس).

(٢) الحرب العظمى: يقصد بها الحرب العالمية الأولى التي بدأت عام (١٩١٤م) واستمرت مدة أربع سنوات.

(ابن جريس).

عبرنا بعد عشرة أميال قاع رافد عظيم هو هرجاب، الذي يأتي من الجنوب وينحرف هنا انحرافاً حاداً ناحية الغرب، في ممر رملي مكسو بكثافة بالشجيرات والحشائش والجنبات وحتى بعض الأشجار. توجد مزرعة نخيل صغيرة تسمى الحازمي عند نقطة التقائه مع وادي بيشة، قليلاً إلى الشمال الغربي من موقع عبورنا، وتوجد إلى أسفلها مزرعة مماثلة في مجرى بيشة تابعة لمدرنا. تقع ترج بالقرب من الملتقى على جانب الوادي وعلى الطرف الآخر، وتوجد فوق الملتقى، نخيل الحيفة، واعر وسحام، بهذا الترتيب وباتجاه أعلى الوادي. يأتي وادي هرجاب إلى هذه النقطة عبر فجوة في تلال بني منبه إلى يسارنا.

يستمر طريقنا جنوباً فوق ممر رملي لنعبر لساناً منخفضاً لسلسلة مرياش المعترضة ثم إلى الدلتا العريضة لشعيب رنوم، وهو أحد روافد هرجاب وهو كثير الأشجار خاصة شجيرات الشار الطويلة والتي تكثر فيها طيور التمير بأعداد كبيرة وهي طيور مغردة. تتبعنا، فيما يلي الدلتا، الجانب الأيسر لرافد آخر هو شعيب سحي والذي يتحد مع هرجاب أعلى دنوم. كل شيء سار كما يرام، إلا من حادث ثقب في إطار إحدى السيارات، في بلاد قفرة كئيبة. كنا قد أزعجنا بحركتنا طائر حجل الصخور التي فرت من أمامنا تتبعها ذريتها، كما كان تواجد طيور آكل النحل واضحاً للعيان.

كنا مطوقين طيلة الوقت بسلسلة سحي المنخفضة من كل الجهات، وقد تتبعناها مسافة ثمانية أميال حينما انحرفنا إلى ناحية اليمين نحو رافدة شعيب ميضر الذي يهبط من مستجمع الأمطار لبيشة- هرجاب على مسافة من هذا الموقع، وإلى ما يلي أرض مرتفعة تسمى وشعة. كان عرضها حوالي (٣٠٠) ياردة ولكنها

مغطاة بالشجيرات والحشائش. ولما كانت قمته مغلقة بسلسلة جرانيتية من جلاميد، فقد اجتزنا عن ممر منخفض، ضيق، للهبوط إلى شعيب الضور الذي يبدأ في وشعة، ويلتقي بهرجاب بالقرب من تل يسمى هضبية.

هرب من أمامنا سرب صغير من طيور شاكور محلقاً فوقنا ليصل إلى بئر ابن سرار، حيث خططنا لقضاء الليلة. لقد قطعنا مسافة (٣٦) ميلاً من الروشن وقد هبطنا، دون شعور منا، حوالي (٨٠٠) قدم. لا بد وأنا قد كنا عند ارتفاع (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان هنالك بئران، إحداهما جافة غير أن لها فوهة رهيبة قطرها (١٥) قدم ومبطنة بالحجارة، توجد كمية كبيرة من المياه في البئر الثانية، وهي ضيقة ولها صهريج قطرها أربعة أقدام، أيضاً مبطن بالحجارة، وكان عمق الماء فيها عند أربع قامات. ينتمي هذا المشرب إلى بني منبه وهو قسم من شهران، وبناء على ما ذكره دليلنا-القادم من بيثة- وهو من أبناء شهران يسمى حمود من فخذ واهب فهي بئر ضاربة في القدم. ذكر لنا ببساطة أن البئر قد تم حفرها وبنائها بالاستعانة بالفيل^(١).

إذ أسند حفر البئر إلى أنه من إنجازات بني هلال، فإن هذا القول سيؤخذ ليدل على أنه لا أحد يعلم من الذي حفر هذا البئر ومتى تم ذلك. ولكن الإشارة إلى الفيل حددت التاريخ. كنا حقيقة على الدرب المشهور، درب الفيل، الذي

(١) الأخبار عن درب الفيل لا زالت دارجة على ألسنة الناس إلى اليوم، وبخاصة الساكنين على مقربة من هذا الطريق الذي يخرج من اليمن إلى الحجاز، فتجدهم أحياناً يذكرون أسماء ومصطلحات تدل على اسم وموقع هذا الطريق فيقولون مثلاً: مشرب الفيل، أو درب الفيل، أو ما شابه هذه الأسماء التي تدل على الطريق التي مرت منها جيوش أبرهة الحبشي ذاهبة نحو الحجاز. (ابن جريس).

سلكه أبرهة وجيش الأحباش في الاتجاه المعاكس عام ٥٧٠م، العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ، وكان هدفه هو الهجوم على مكة. حسب علمي، فإن تلك الحادثة هي آخر مناسبة شوهدت فيها الأفيال في الجزيرة العربية. وعليه، فإن هذا البئر لا بد وأن يكون عمرها الآن ١٣٦٦ سنة، وربما يرجع تاريخه إلى الأيام المبكرة للملكة سبأ التي استخدمت أيضاً الأفيال في سفرها إلى سليمان، حوالي (٣٠٠٠) عام مضت. يشير العرب إلى درب الفيل هذا أو إلى من افتتحه بأسعد كامل وهو التبع، حاكم مشهور على اليمن حوالي (٤٠٠)م والذي تحت اسمه، تم توضيح عدد من أقسام الطريق لي في عام ١٩٣٢م أثناء رحلتي الشمالية من بيشة. لقد كنا نتبع درب الفيل القديم في هذه الرحلة الجنوبية فوق كل المسافة وحتى هذا الموقع، لأنه لا يوجد طريق ملائم للحركة الثقيلة بين هرجاب وبيشة. يقال إن هذا الدرب من هذا الموقع، يتجه أكثر نحو الجنوب الشرقي، عابراً هرجاب عند بئر آخر تسمى عليان ثم يستمر على الطريق الصحراوي بعيداً عن هذه البلاد التلالية السفوحية الصعبة.

كانت الليلة مضيئة بالقمر ولا توجد حشرات كثيرة، عدا البعوض، بالقرب من البئر. ولهذا السبب فقد نصبنا معسكرنا بعيداً تماماً عن البئر، عند طرف الوادي المسمى، شعيب الضور والذي يتصل في نهاية الأمر مع شعيب الزو في طريقه إلى هرجاب. بدأنا رحلتنا في اليوم التالي بالتسلق إلى قمة جبل ارتفاعه (٥٠٠) قدم يسمى أم ومر على أقل من ميلين ناحية الجنوب من معسكرنا. كانت البلاد المحيطة، لسوء الحظ، مغطاة بالغمام وكانت العلامات الأرضية غير واضحة. كانت البلاد المعترضة صخرية ومقطعة إلى متاهة من مجاري التصريف، كان أكبرها شعيب تلغ عند سفح أم ومر وكانت كلها تجري ناحية هرجاب.

لا يوجد شيء مثير للاهتمام في هذه البلاد المحيطة، باستثناء اللمحات التي التقطناها للصحراء، بعيداً ناحية الشرق، إلى ما يلي هرجاب مع مواقع مرتفعة هي: الرهوة، والصنقة، والأخضرين، وغمرة، وحفايلة في مجملها مكونة حاجزاً من أرض مرتفعة تفصلنا عنها. قمت بصيد الطيور في هذه المنطقة ومن حولها، وأدخلت إلى الكيس طائر حجل ودرسه، بينما كانت طيور القذاف مروحية الذيل، والخطاف وأكل النحل وطائر الشمس متوافرة. لم نلاحظ أي علامات للحياة حول البئر أثناء الليل. ولكننا رأينا قطعاً من الضأن من قمة أم ومر، كانت بالفعل تشرب من هناك. لا بد وأن الرعاة كانوا قريبين منا بما فيه الكفاية ليحسوا بوجودنا ولعلمهم ربما لم يكونوا راغبين في الاتصال بنا. إذ ربما دار بخلداهم أننا جباة الزكاة.

كان رفاقنا قد استقروا لإعداد طعام الإفطار، حينما كنت أنا وحمود نلقي نظرة عامة على أم ومر، اشتركنا معهم في تناول الإفطار قبل أن نواصل الرحلة. كنت قد قمت بجمع كمية كبيرة من النباتات من الجبل، وهذه يجب أن تضغط وتعلم. عبرنا الآن مجرى تلح ورافده كضان لنجد أنفسنا في ممر صحراوي تنتشر من فوقه في كثافة جلاميد جرانيتية كأنما قد جلس في هذا المكان عملاق هنا وبدأ يفتت الجبل إلى قطع صغيرة ويقذف بهذه القطع الصغيرة في كل مكان. اجتهدنا للخروج من هذه المنطقة، لنصل، بعد ثمانية أميال إلى الخط الفاصل بين نظام تلح الذي كنا فيه، ووادي السرين وهو رافد ينساب شرقاً إلى هرجاب. كان كل ما حولنا تلال وتلال أكثر وأكثر، غير أن أهم ما يمكن ذكره هنا هو كتلة باح^(١) التي تقع إلى الجنوب الغربي وعلى بعد (١٢) أو (١٤) ميلاً، إلى حيث ينساب مجرى

(١) ويعرف باسم (جبل باح) (ابن جريس).

بيشة، بناء على ما ذكره لي دليلي. يحتوي نظام تصريف السرين على أنهار، متوازية عديدة ويقع وراء ذلك الوادي المزدوج الذي يسمى سيلين وفيما يلي هذا أيضاً تقع مختبية وكذلك معمر وكلها خطوط تصريف تنحدر من التلال المنخفضة إلى الغرب لتتقارب في نهاية الأمر في الخط الرئيس للسريرين قبل اتحادهما مع هرجاب. تقع فيما يلي هذا الوادي، بلاد يكثر فيها الجرانيت وعلينا أن نقطعها فهي بلاد صعبة، خشنة وجرداء ولكنها منحدره إلى الأمام ناحية شعيب كتته وهو رافد آخر لهرجاب يمكننا رؤية واديه الذي بدا مرصعاً هنا وهناك بأشجار ضخمة، وعلى بعد ميل واحد، ناحية الجنوب الشرقي.

كان سفرنا صعباً في كتته وذلك لأن قاع الوادي كان طينياً، ومشققاً بواسطة السيول، وكان مغطى بالجنبات الخفيفة. تركنا كتته بعد فترة وجيزة وتبعنا رافده شعيب رجعال متجهين نحو كتلة جرانيت بارزة جداً تسمى ضور ابن سرار. أصبح سيرنا هنا صعباً جداً وفي بعض المناطق كان طريق السيارات قد محته السيول تماماً. استدرنا حول تل الجرانيت، عندما اقتربنا من القمة، وذلك عند منتصف الطريق، مارين بكتلة جلمود ضخمة ساقطة على الأرض تسمى جلبة، لندخل بعدها إلى وادي شعيب سمران الثانوي الذي يرتفع إلى كتلة ضر ومن ثم يجري مباشرة إلى هرجاب.

يقال إن هنالك بئراً قديمة اسمها كومخة، في موقع ما في الصحراء إلى الشرق معادلة لهذا الموقع وعلى طريق درب الفيل وفي وادٍ يسمى نهر ينساب إلى المسيرق.

قادنا وادي آخر صغير يسمى حشة إلى حافة سهل واسع ينحدر إلى الأمام حيث يوجد خط تصريف كبير يسمى خلائل وتحيط به تلال عديدة مكونة نوعاً من

الأحواض المستديرة وكان منفذه تجاه هرجاب. مررنا كذلك بزوج من خيام البدو على حافة هذا المر، فيهما بعض نسوة وبعض كلاب فقط، وقد جلب لنا كرمهن المعروف اللبن، وفي المقابل دفعنا إليهن بعض النقود. كان رجالهن في المراعي مع الأغنام، ووجود هذه الخيام أفادنا بأننا أصبحنا نقرب تدريجياً من المساكن. يقع بعيداً ناحية الجنوب الغربي جبل منعاً في سلسلة الحاجز الرئيس في بلاد بني شهر، لا علاقة لهذه القبيلة مع قبيلة شهران. يقع جبل باح الآن ناحية الشمال الغربي، بينما كان تل حرب الذي يقع قليلاً ناحية الشمال الغربي، معلماً أرضياً آخر على الجانب القريب لمجرى بيشة، كذلك كانت قمة قمعة ناحية الجنوب الغربي، كما ظهرت إلى البعيد نقاط سلسلة الحجاز الرئيسة التي تدعى لحية أو ضحية. كان النسوة اللاتي أكرمنا يتنمن إلى فخذ كود التابع لشهران من منطقة واحة خيبر^(١).

امتدت أرض ممر خلائل إلى مسافة ثمانية أميال عبر طريقنا وانتهى إلى أرض سهلة مررنا من فوقها لنواجه بوادي هرجاب نفسه، وبكل عظمته فهو غابة لأشجار سدر حقيقية تحتل مساحة كبيرة على جانبي بطن السيل الرملي العريض. عسكرنا هنا، تحت الأشجار، بعد أن سافرنا لمسافة (٤٠) ميلاً من بئر ابن سرار، وحوالي (٩٠) ميلاً من بيشة. لقد كان المنظر -حقيقة- جميلاً وغير عادي. يبدو الوادي هنا منبسطاً على الجانبين ليكون بصفة رئيسة غابة ضخمة من أشجار السدر مع وجود عنصر متواضع من أشجار الطلح. كانت هذه البقعة جنة شائعة للطيور التي تعود للأنواع نفسها التي شاهدها في عشيرة، كما سمعت أثناء الليل الصرخة المألوفة لطائر الزقراق -يسمونه محلياً سماق أو كروان-، والذي كنت قد لاحظته

(١) قبيلة كود إحدى القبائل الرئيسة لشهران. (ابن جريس).

عند بئر ابن سرّار. كان ارتفاع أشجار السدر (٣٠) أو (٤٠) قدماً وكانت مورقة بكثافة. لا بد أن يكون ارتفاعنا هنا (١٤٠٠) قدم أعلى من بيشة وربما (١٢٠٠) قدم فوق ملتقى هرجاب- بيشة، إلى ارتفاع (١٣) قدماً لكل ميل نقطعه في المتوسط.

كان وادي بيشة، وعلى مسافة (١٢) ميلاً ناحية الغرب، معلماً بنقطتين من سلاسل جبلية منخفضة تسميان ثمذ يجري عبرهما الوادي، كما يرى إلى البعيد ذلك الخط الشاحب للجبال العالية ذات القمم التي ورد ذكرها من قبل. سافرنا مبتعدين عن وادي هرجان وذلك حين قمنا بمواصلة الرحلة في آخر صباح، لآخر أيام شهر مايو، عبر رافد يسمى عنت وهو ينساب متعرجاً في اتجاه جنوبي. كان عنت مسيلاً، موحشاً، مغلقاً، صعب المراس، غير أنه بعد مسافة حوالي خمسة أميال، انفتح على أرض واسعة خالية من النبات ما عدا عدد من الأشجار التي تجمعت عند ثقوب الماء عند فضية.

لم تكن هذه الآبار حقيقة، بل كانت زوجاً من ثقوب قد حفرت في الوادي إلى عمق قدمين وكانتا ممتلئتين بالماء. كان هنالك قطيع كبير من الأغنام يشرب من عندها في ذلك الحين، وكان الرعاة كعادتهم، كرماء باللبن، الذي كان منعشاً جداً، بخاصة بعد قيادة شاقة للسيارات أعلى هذا الوادي. خرجت شاحنتنا، عند هذه النقطة، من مسيل عنت لتتبع الرافد عطيفة إلى سفحه على مسافة ميل أو ميلين، ثم عدنا إلى دخول مسيل عنت في موقع آخر من مجراه، وجدنا أنفسنا عند قمة مسيل عنت فوق مجموعة تلال تسمى أدمان تبعد حوالي ميل واحد من هنا إننا نقف على حافة مستجمع أمطار كبير الأهمية، ذلك لأن البلاد التي تقع خلفنا تصب في هرجاب ومنه في نهاية الأمر في وادي بيشة، أما الأرض التي أمامنا فهي منحدره إلى أسفل، إلى شعيب الدهايبية، الذي ينساب إلى وادي نهر

العريض، والذي يمكن رؤيته من الواجهة، أمامنا، والذي بدوره سيصب في وادي المسيرق الذي هو أحد روافد وادي تثليث، وهو الوادي الثالث وربما الأعظم بين الأودية الرئيسة في جنوب غرب نجد.

وصلنا الآن إلى الحد الفاصل بين بيشة وتثليث، ونستطيع أن نرى أمامنا بوضوح نخيل قضة وهي في وادي المسيرق. وتقع، في التلال الصعبة إلى الغرب من موقعنا، ويجوار هضبة تسمى ركية، القمة الحقيقية لوادي هرجاب ولا يبعد مجرى بيشة كثيراً منها. يتصل شعيب الدهاية مع وادٍ على بعد ميلين ناحية الشمال الشرقي، ويجري وادٍ إلى سلسلة خسا وهناك يلتف ناحية اليمين إلى المسيرق. وتقع البئر القديمة كوماخه في مجراه، وقد ورد ذكره من قبل، وكنا مرة أخرى على درب الفيل القديم. يمكننا رؤية القمم الجرانيتية على حافة وادي المسيرق، وكان لبعضها أشكال غريبة، وهي على شريط ممتد من تجاه الجنوب الشرقي إلى الجنوب: مسقه- وهذه من ثلاث نقاط-، جمرة- ذات قمة مزدوجة مسطحة كالطاولة-، عمود شتية، وعدمان وثلاثهم إلى الجنوب الشرقي. تقع كتلة شمران في الاتجاه نفسه، ولكن إلى البعيد، وهي سلسلة جبلية معتبرة إلى جانب الهرم الكوارتزي أم القصاص ذات القمة المسطحة وشعة المسطحة القمة كالطاولة أيضاً.

كنت أجلس، ومعني دليلي على كومة من الحجارة على أرض مرتفعة لتعليم اتجاه مياه فضية، أثناء قيامي بتسجيل هذه الملاحظات. كنا جالسين هناك لمدة من الوقت، حينما- وفجأة ومن أسفل منا- طارت أنثى حجل مطنطنة. كنت، بالطبع، متأخراً جداً في استخدام بندقيتي، غير أن شقشقة ضعيفة صدرت من ركام الصخور نفسها التي نجلس عليها، حيث كانت هنالك (٤) أو (٥) فراخ

مختبئة . وبصعوبة شديدة حررت اثنتين منها لتضاف لمجموعة عيناتي وكان ذلك كافياً للتعريف العلمي . كانتا من نوع السيسي الشائع في هذه المناطق . تحصلت كذلك على قنبرة صحراوية ، بينما كنت قد وضعت من قبل وفي الأكياس من فضية ووادي هرجاب بعضاً من عصافير الصخور . ظهر في وادي هرجاب نوع من الطير محلي جديد إلى جانب الباز ، والعصافير ، والقنابر ، وبعض الطيور الصغيرة النساجة . كانت هذه المقاطعة ، في الحقيقة ، أرض صيد للطيور مربحة .

يقع مسارنا الآن تجاه الجنوب الشرقي واخرقنا قبل فترة وجيزه شعيب دهاية وشعيب نهر وبالتالي لنجد أنفسنا في بلاد ذات بروزات جرانيتية صعبة ، مررنا فيها برعاة من بني واهب (شهران) بقطعانهم . إنه هو الفخذ نفسه الذي مررنا ببعض منسوبيه وأغنامهم عند موقع الشرب في فضية . عبرنا ، في هذا الموقع ، عدداً من روافد نهر بما في ذلك مسقه الذي توجد به بئر بالاسم نفسه تقع على بعد ميل واحد من الطريق ، ناحية اليسار . يوجد إلى ما وراء هذه المسائل شعيب أثب وهو شعيب متعدد المجاري ، ويهبط من جمرة ليتصل المسيرق بالقرب من نخيل القضة وتتبعنا ، فيما يلي هذا ، ومرة أخرى ، مجرى شعيب حميته الذي يتحد مع المجرى الرئيس نفسه قليلاً إلى أسفل مع واحة خيبر ، والتي ظهرت سريعاً أمامنا إلى ما وراء شعيب تلح ، وهو رافد آخر لمسيرق . علينا أن نعبر خلال كتله تلالاً جرانيتية رهيبة تسمى غار وذلك قبل أن نصل إلى حافة الوادي ، وقد قررنا التوقف عندها ، عند منتصف النهار ، في صحبة بعض الأعراب ذوي القطعان من قبيلة كود ، والذين انتشرت خيامهم وأغنامهم بين هذه الصخور العظيمة .

أصبحنا الآن عند الطرف الجنوبي لمحافظة بيشة. التي تتضمن كلا من وادي خيبر ووادي المسيرق. كانت كتلة الجرانيت هذه على ارتفاع أقل من (١٠٠) قدم فوق مستوى السهل، وقد يسرت لي مسحاً أولياً للواحة. كان عرض الوادي هنا ميلاً واحداً تقريباً، حتى حافة سلسلة جبال شميران التي ينبعج من خلالها مسيل صغير يسمى شدا داخل الوادي الرئيس في نقطة تقع ناحية الجنوب الشرقي. كان فم الوادي مغلقاً تقريباً بمزرعة نخيل صغيرة ولكنها كثيفة وبداخلها قصور قليلة. تكوّن هذه المزرعة قرية شع الصغيرة. يعرف الوادي الرئيس أعلى هذا الموقع باسم شعيب السليل، ويطلق اسم المسيرق محلياً على الوادي من خيبر إلى أسفل. هما في حقيقة الأمر وادٍ واحد. تتكون خيبر من مجموعة قصور منعزلة متفرقة في مزارع النخيل، أكثر من كونها قرية. يتكون قسمها الرئيس من أحد عشر قصراً مع مجموعات مبعثرة من النخيل والأثل تقع في منتصف الوادي، ممتدة إلى حوالي الميل الواحد من النهاية إلى الأخرى. ولا يبعد مركزها بأكثر من (٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة عن صخور غار التي يجري فيما وراءها مجرى السيل الرئيس. توجد قصور وأشجار نخيل واسط على بعد ميل واحد من موقعنا، وتجاه مجرى أسفل الوادي، وتابع للمجموعة الرئيسة، وأكثرها أزهار في الواحة، بينما إلى أسفل قليلاً يوجد كل من الحامض والقضة في هذا الترتيب.

كان هذا كل ما يمكن أن يشاهد في الواحة من غار، غير أنه توجد سلسلة من مزارع نخيل صغيرة ماثلة وعدد من القصور في الوادي تجاه مجرى أسفل الوادي لقضة وهي: الأخضرين، وبادية، والقوز، وحسو، والعين، والبغث، والمريفق، والحرفين، والجزيرة. وهذه الأخيرة تبعد حوالي (١٣) ميلاً من قضه والبقية تتوزع على مراحل بينهما. يجري الوادي، فيما يلي جزيرة إلى مسافة

(١٢) أو (١٣) ميلاً في مجرى يسمى الثَّنُّ وهو موقع اتصاله الفعلي مع وادي تليلث. يكون طول وادي المسيرق على هذا الأساس حوالي (٣٠) ميلاً باتجاه أعلى الوادي اتجاه النهر، من نهاية مجموعة خبير الأساسية، وتمتد الواحة كلها، وبشكل متقطع فوق امتداد طولي يقدر بـ (١٧) ميلاً. ومعظم سكانها من بني واهب (شهران). وقد كان رئيسهم، في هذا الوقت الشيخ هيف الفوية. كما يبدو احتمال وجود عناصر من كود بين السكان برغم أن هؤلاء بدو بصفة قاطعة. يرأس قبيلة شهران سعيد بن مشيط، والذي سنقابله ببلدته فيما بعد.

لقد عثرت على عدد قليل من النقوش الثمودية إلى جانب رسم بدائي لجمال وذلك أثناء تجولاتي بين صخور الغار، أخبرني حمود بأنه توجد تسجيلات مماثلة على جبل جمرة الجرائتي الذي ذكرناه من قبل. وبعد أن أمضيت بعض الوقت في نسخ هذه النقوش والرسوم إلى جانب البحث عن الطيور التي شاهدت منها: الهدهد، والعوستق وبعض العصافير، وكذلك شاهدت نوعين من الغداف وعدداً من القنابر المتوجة في مساحات معتبرة في حقول الجذامة التي تم حصادها منذ فترة طويلة. مررت وزملائي على الواحة، حيث عسكرنا في المزوج المعشبة المريحة عند نهاية القرية في اتجاه أعلى الوادي. كانت توجد فوقنا بركة كبيرة ممتلئة بمياه السيول، وكما لاحظت أن حقول الذرة الصفراء كانت كلها ذات حواجز للإسالك بالماء لري الأحواض. يشاهد بوضوح كمية كبيرة من المياه في الطبقة السفلى في هذا الوادي ذلك لأن معظم الآبار كانت عبارة عن نقر مفتوحة تم حفرها في أراضٍ طينية إلى عمق (٤) أو (٥) قامات وبلا جدران. وتمتلئ هذه النقر مع كل سيل بالظمي ولكنها سهلة الحفر مرة أخرى.

كان الناس فقراء إلى حد بعيد ولكنهم ودودون وكرماء برغم شح ما لديهم. حينما كنت أتجول في الواحة حاملاً بندقيتي، رأيت امرأة تعتنى ببعض الثيران،

وتنظر ناحيتي في كآبة كانت بحق امرأة شابة ذات عيون جميلة وجين جميل ومرتدية سمي ملتصق، أوضح كل تقاطيع جسمها الجميل. كانت تلبس أيضاً عصابة للرأس من الفضة، ويبدو بوضوح أنها ذات مكانة في المجتمع المحلي. كان اسمها حمرا، وقد أخبرتني به في الوقت المناسب، حينما أشارت بخجل إلى حمامة تجثم على إحدى شجيرات نخيلها. أطلقت النار على الحمامة وقدمتها لها فكان لي شكرها الجزيل وابتسامتها الساحرة. بادرته فتاة أخرى بالكلام، كانت جميلة أيضاً، وجريئة، ولكن كانت من درجة أدنى مقارنة بالأخرى، وذلك يبدو من ملابسها التي كانت بالية وكان لونها أصفر متسخ - اللون الطبيعي لقشرة الرمان - طلبت مني أن أهديها طائراً أيضاً، ولكن كان لا يوجد لدي طائر، غير أنها فرحت بأخذها لبعض البنسات. وامرأة ثالثة أكبر منهما سناً جاءت من داخل بعض الخيام المنتشرة أسفل النخيل، سألتني عن عصفور كنت قد صدته لأجل مجموعتي الخاصة غير أنني قدمته لها عن طيب خاطر. كان تجوالي في مزارع النخيل بخبير في إجماله، تجربة مسلية.

خرجت مرة أخرى، في الصباح، إلى القسم الثاني من القرية واسمها وسيط. يقع هذا القسم في الوادي قريباً من مجرى السيل وعلى جزأين يفصلهما سهل صعب عرضه حوالي (٤٠٠) ياردة. كانت كل الحقول هنا ذات حواجز، كما هو الحال في خيبر، لأجل الإمساك بالماء. يقع القسم الثاني هذا تجاه أسفل الوادي بالنسبة للقسم الأول، ويتكون من مزرعة صغيرة لأشجار النخيل، وكانت المنازل في كليهما صغيرة وحقيرة. كانت الحقول مقسمة أيضاً إلى مربعات صغيرة لأجل الري الملائم. كما بدت شجرة زيت الخروع مزدهرة بكثافة في هذه القرى، وفي بعض الحالات نمت إلى حجم الأشجار الحقيقية. رأيت بئرين في الوسط

وبهما الماء عند عمق أربع قامات وبئراً ثالثة كان يحفر بالفعل في تكوين بازلتى - عند عمق خمس قامات - حينها، بجوار الجانب الأيمن للوادي. كان النساء يقمن بالعمل، وأثناء مروري بالقرب منهن، دعنتي إحداهن أن أقبل لتناول بعض اللبن. ذهبت إليهن، فقط لأتبين أنهن حقيقة ليس لديهن لبن، ولكنهن أردن أن يرين الرجل الذي كان يطلق النار على طيورهن. وقفت لحظة لآتحادث معهن، ووجدت أن النسوة الثلاث كن يمثلن ثلاثة أجيال للأسرة نفسها. الابنة، والأم، والجدة. ربما لا يفصلهن أكثر من (٣٠) سنة، عن السيدة الكبرى، وقد تكون الصغرى أقل منى سنأ، كما كانت فى صحة سليمة ومعافاة.

كان إنتاج التمر فى هذه الواحات من صنفين - صنف صغير يسمى واغ وصنف أكبر يسمى صفري وهما النوعان الرئيسان لمزارع النخيل فى بيشة^(١). كانت الواحة الرئيسة، حيث عسكرينا، محمية من السيول بحاجز منخفض من الرمل عبر مجرى السيل فى اتجاه أعلى الوادي، ويوجد حاجز مماثل أسفل المزارع الرئيسة ليمسك المياه أطول فترة ممكنة لأغراض الري. رأيت من الطيور إلى جانب اليمام والهدهد - الأخير هذا منه أعداد معتبرة - بشنون البقر (غرنوق) بالقرب من البركة وأيضاً حصلت على خرشنة، كما يكتر الحمام المحلى الشائع فى الجزيرة العربية، وهو الذى يزور المسجد الحرام فى مكة وفى أسراب كبيرة.

كان الظهر قد ارتفع حين غادرنا خير لبداية المرحلة التالية لرحلتنا عبر مجرى السليل الذى يمكن أن نعد جانبه الأيمن على امتداد سلسلة جبال شميران حدوداً جنوية لمنطقة بيشة. يعبر الطريق بطن السيل من أعلى البركة ويصعد الوادي فى اتجاه الجنوب الغربى، ثم يدور بعد مسافة ثلاثة أميال أكثر ناحية الجنوب والجنوب

(١) التمر الصفري من أهم وأكثر أنواع التمور التى تشتهر بها بيشة. (ابن جريس).

الشرقي في المرتفعات العليا للمجرى، لقد أصبح المجرى هنا ضيقاً ومخترقاً السفوح الجبلية للبلاد. تركنا السليل بعد مسافة ستة أميال أخرى في الاتجاه العام نفسه، إلى بعض التلال التي تسمى روضان، ثم اتجهنا شمالاً إلى شعيب معو^(١)، حيث وصلنا بعد ميلين أعلى الوادي والحد الفاصل لمنطقة بيشة. كنا على ارتفاع (٣٥٠) قدماً من خير وحوالي (٢٠٠٠) قدم من الروشن، وحوالي (٥٠٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر.

ألقينا النظرة الأخيرة على خير والعلامات الأرضية التي ألفناها إلى شمال هذه البلاد. يقع أمامنا الآن مرتفع من الأرض ذو أحواض واسعة (أغراف) في وسطه. فنحن الآن على أطراف منطقة جديدة هي: خميس مشيط.



(١) وربما: أطلق على هذا الشعيب أيضاً اسم (شعيب خدام). (ابن جريس).